الصورة في شعر ابن عمار

د . نافع محمود خلف

كلية الآداب — جامعة بغداد

تمهيد :

الذي نقصده بالصورة الشعرية في بحثنا هو ما استخدمه ابن عمار* من صيغ أسلوبية في استعمالات اللغة المجازية (البيان والبديع) لتشكيل الصورة الفنية ببناء لغوي خاص ، لينقل أحاسيسه وافكاره الى غيره ، ومن ثم بيان مدى نجاحه او إخفاقه في اداء وظيفتها الجمالية ومدى انتظام التعاون بين الصورة في سياق القصيدة .

وليست الصورة شيئا جديدا ، فان الشعر قائم على الصورة منذ وجد حتى اليوم ولكن استخدام الصورة يختلف بين شاعر وآخر ، لأن من خلال الصورة تمتحن قدرة الشاعر لأن الصورة تستكشف لنا شيئا بمساعدة شيء آخر ، والمهم فيها ذلك الاستكشاف ذاته ، أي معرفة غير المعروف لمزيد في معرفة المعروف .

وبعد قراءتنا الفاحصة لنصوص شعر ابن عمار تبين لنا انه غني بالصور الشعرية الموفقة لوضوح المعنى وسهولة اللفظ ، فهي — بصفة عامة — لا تخرج

---

* هو محمد بن عمار الاندلسي ، شاعر قديم اعتنى بالزخرفة اللفظية والمحسنات البيانية والبديعية ، عاصر المعتمد بن عباد وقتل سنة ٤٧٩ هـ . تنظر ترجمته : قلائد العقيان ص ٨٦ ، الحلة السيراء ٢ / ١٣١ . المعجب ص ١١١ ، المغرب ١ / ٣٨٩ .

عن صياغات البيان اللغوي وبديعه ، فكانت قريبة من الواقع الاندلسي ــ ومـأخوذة من مصادر الطبيعة المحيطة بابن عمار .

اما كثافة الاستخدام الاسلوبي بالصورة البلاغية المستقاة مـن المـوروث الشعري ومعاني القرآن الكريم ورموز التاريخ ، فانها جاءت طبيعة وذلك لأن ثقافة ابن عمار انطلقت من نبع الموروث الفني الرفيع ، وهذا مكنه من استيحاء الصـور والمعاني ومن ثم اعادة تركيبها اللغوي في صياغة تجديديـه ملائمـة لمعطيـات عصره ومداخلاته .

ويبدو لنا ان ابن عمار قد كشف من استخدام عناصر الصورة البيانية التي تمثلت في التشبيه الحسي والمعنوي . كما استغل الاستعارة كثيرا في بنية صورتـه الشعرية إدراكا منه لقوتها على الايحاء ومن ثم احداث التأثير الفنـي والمشـاركة الوجدانية . وهي من أهم غايات الابداع الشعري .

ولا يخفى على ذوي الاختصاص ان التصوير البيـاني مـن خصـائص الشعر الجوهرية التي تزيد في قيمته وتأثيره خاصة حينما ينبثق من لغة القصيـدة نفسها في تجسيدها المعاني والمشاعر في اطار صياغات ابداعية قريبة من الواقـع المحسوس .

فضلا عن ذلك فأن جودة التصوير معيار كجودة انسجام الشعر وتعـاون صورة المتباينة في القصيدة الواحدة وهذا ما سنتناوله في بحثنا هذا الذي يجيء في مبحثين هما :

- الصورة البيانية .
- الصورة البديعية .

المبحث الاول : الصورة البيانية :

من استجوابنا شعر ابن عمار في هذا المجال تبين لنا ان تشكيل الصـورة البيانية يقوم على اختيار الالفاظ المفردة وتكوينها في اطار جمل شـعرية منسـقة الاجزاء يتعلق ببعضها ببعض حتى تكتمل ملامح الصورة الكلية ، فيكون مرد هـذا ، هو القدرة على خلق الآثار وبعث روح التأمل بأقصر طريقة يمكن بها ابن عمار

ثقل المعاني المطلوبة ومن ثم استيعابها من لدن قارئ شعره بوضـــوح وتركـــيز دون تكلف كبير .

ونرى ان استخدام الصورة البيانية في شعر ابن عمار جاء مقصودا وقـد يكون ضرورة لابراز الشاعرية وصدق المشاعر اذ ان الطبيعة ومعطيات الاحداث كانتا ميدان ابن عمار . يستمد منهما صوره الى جانب تفاعله مع مظـــاهر بيئتـــه الاندلسية الجميلة ، ويمكن القول ان صورة البيانية تمثلت بما يأتي :-

اولا : التصوير بالتشبيه .

ثانيا : التصوير بالاستعارة .

التصوير بالتشبيه : -

يؤكد النقد الادبي ان التشبيه فـــن تصويـــري ، لا ســـيما وان الصـــورة التشبيهية مصدرها الخيال ، وكلما كان التصوير حسيا جاء أثره أوقع في شـــعور المتلقي بجانب ان له جمالا ، وروعة تتمثل في دقة التشبيه وحسن تصوير المعنـــى [١] ، فالتشبيه ــ بصفة عامة ــ يؤثر في العاطفة ويجلب الانتباه ، وفي رأينا ان ابن عمار نجح في استخدام التصوير بالتشبيه ، فكان ركنا اساســـيا فـــي بنـــاء صوره الشعرية وإخراج ما لا تقع عليه الحواس الى ما تقع عليه حواس المتلقي في صور قريبة من واقعه ، وفي الوقت نفسه فقد استخدمه ابن عمار في التنفيس عـــن ذاته والتعبير به عن استجابة النفس فكشفت صوره التشبيهية عن كثير من نـــوازع النفس الانسانية ومدى استجابتها وانفعالها . بما تقع تحت تأثيره .

ومن التتبع الاحصائي للصور التشبيهية في شعر ابن عمار اتضح لنـــا ان التشبيه التصويري استخدمه الشاعر في انماط جملته بتفاوت ملحوظ ، وقد جاء بناء الصورة غالبا قائما على العقل والتعليل المنطقي ، معتمدا على استمداد مصـــادره من بيئة الاندلس ومن معطيات احداثها ، لذا جـــاءت الصـــور حســـية ــ جزئيـــة

---

(١) التصوير البياني : الدكتور حفني محمد شرف ص ٥٣ .

ومركبة ــ الى جانب انها تطرب النفس وتؤثر فيها ، وتلك غاية ما يسعى الى تحقيقه الشعر .

ومن الاستقصاء الكامل لأدوات التشبيه تبين لنا ان الاداة " كأن " أكثر استعمالا من غيرها حيث وردت في سبعة وثلاثين موضعا ، وقد جاءت مركبة مع " ما " في عشرة مواضع ، اما الكاف فقد وردت في خمسة وعشرين موضعا ، ووردت مركبة مع " ما " في تسعة مواضع ، أما الاداة " مثل " فجاءت في تسعة مواضع .

وقد ورد الاستخدام التي تفيد التشبيه (يماثل ، يشبه) كذلك التشبيه الضمني الا انه قليل نسبيا في ثلاثة مواضع فقط . ويهمنا هنا الى ان نشير الى ان الصورة التشبيهية جاءت في شيء من التماسك على الرغم من اتضاح التيار التقليدي في التشبيهات التي تمثلت في الانماط التالية :

اولا : التشبيه بـ كأن :

ورد طرق التشبيه مع كأن بحسب الانماط التالية :

ــ النمط الاول :

المشبه مفرد + كأن + المشبه به مفرد :

جاء هذا النمط في اثني عشر موضعا متباينة من حيث استخدام طرفي التشبيه ومن حيث الفصل بين المشبه والمشبه به ، ومن ثم مجيء الفعل مع الاسم واستخدام ضمير الغائب مع ضمير المخاطب أو المتكلم كما في قوله :

أرض كأن النهر فيها معصم صاف أطل على رداء أخضر [١]

وكذلك قوله :

روض تفتح زهره فكأنه مقل العذارى حدقت لتراكا . [٢]

والملحوظ في هذه الابيات مجيء طرفي التشبيه والاداة في جمل سهلة التركيب اللغوي ، ولعلنا نلمس بوضوح ان الاداة " كأن " في البيت الثاني جاءت في

(١) . محمد بن عمار : د. صلاح خالص ص ١٨٩ .

(٢) نفسه ص ٢٠١ .

شيء من الخروج على نظام ورودها في التشبيه ، إذ ان الاصل في "كأن" ان يليها المشبه دائما .

وكذلك ابتدأت جملة التشبيه هنا بجملة اسمية في الوقت الذي استخدم الجملة الفعلية في ابيات اخرى في مثل قوله :

وهويته يسقي المدام كأنه قمر يدور بكوكب في محلس [١]

وفي قوله :

وقد لاح نجم الصباح باد كأنه مطرق جيش مؤذن بأميره [٢]

ـ النمط الثاني : المشبه جمع + كأن + المشبه به مفرد .

ورد هذا النمط في شعر ابن عمار في خمسة مواضع متنوعة منها قوله :

فتربع أيام مضت وكأنها إذا امتثليا النفس لذة حالم [٣]

ونلمح مثل ذلك في قوله :

والشمس احيانا تلوح كأنها أمة تعرض نفسها للمشتري [٤]

ـ النمط الثالث : المشبه جمع + كأن + المشبه جمع أيضا

ورد هذا النمط في قول ابن عمار :

روض تفتح زهره فكأنه مقل العذاري حدقت لتراكا[٥]

الذي نتبينه من هذه التشبيهات صورا بيانية واضحة المعالم الفنية ، تكشف عن بيئة الشاعر وعن مدى قدرته التعبيرية عن تلك الاجواء الشعورية التي وقع

---

(١) نفسه ص ٢٩٧ .
(٢) نفسه ص ٢٥٣ .
(٣) نفسه ص ٢١٩ .
(٤) نفسه ص ٢٤٨ .
(٥) المصر السابق ص ٢٠١ .

تحت تأثيرها فوصفها برسم صور خيالية موفقة ، معبرة عن احساسه ، وفي الوقت نفسه توحي الى المتلقي بالتأمل وتبعث فيه روح الانتعاش وتعمق من تفكيره .

ويبدو ان فن التشبيه قد ساعد ابن عمار في خلق مثل تلك الصور الموحية دون تحديد شكل الجملة الشعرية من حيث مجيء الترتيب في طرفي التشبيه أو اداته ، وانما جاء تمسكه واضحا بالجانب الحسي ليقدم صورا يدركها المتلقي ادراكا حسيا فتؤثر في وجدانه وتنفذ الى مشاعره فتحدث المشاركة الوجدانية بأيسر السبل ، والنقد الأدبي لطالما أكد على حسية الصور ، بل عد ذلك احدى المعايير الجوهرية لقيمة الصورة ، وهذا ما يؤكده القول : " إن أحسن الشعر ثلاثة : مثل سائر ، وتشبيه نابه ، واستعارة مرئية " (١)

ـ النمط الرابع : كأن + المشبه مفرد + المشبه به مفرد

ورد هذا النمط في قوله :

نحن خليلان ما دعانا للوصل ود ولا اختيار
نفصل ما كان ذا اتصال كأننا الليل والنهار (٢)

ونلمسه في قوله :

كأنها في جمال وامتناع ذرى خود من الروم في خدر من الاسل (٣)

وقد يطول بنا التقصي الاحصائي * في هذا المجال ونرى الاكتفاء بالاشارة ، الى مجالات التشبيه أما الذي نهدفه من هذه الاحصاءات وتباينها في الاستعمال الفني فهو بيان مدى شاعرية ابن عمار وقدرته على تطويع اللغة والسيطرة عليها في اطار الشعر وصياغة صور بيانية بعلاقات جديدة بين الاشياء

---

(١) ينظر : الاسس الجمالية في النقد : الدكتور عز الدين اسماعيل ص ٣٧٤ .
(٢) . محمد بن عمار ص ٢٤٦ .
(٣) . المصدر نفسه ص ٢٤٦ .
* ملحق احصائي لاستخدام " كأن " في التشبيه : ص ١٨٩ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ ، وينظر التشبيه : بـ " كأنما " ص ٢١٠ ، ٢١١ .

الحسية وغير الحسية على الرغم من صعوبة التأليف بين طرفي التشبيه ومتطلباته في ملائمة مقبولة في سياق الشعر ولغته :

ب ــ التشبيه بـــ " الكاف " *

حرص ابن عمار على الموازنة الدقيقة بين طرفي التشبيه كما يبدو ــ بخاصة حينما استخدم " الكاف " التي جاءت بالمرتبة الثانية وفي مواضع أقرب الى الاختزال والمقارنة أو المقابلة في المعنى وتمثل ذلك في الانماط الاتية :

ــ النمط الاول : المشبه مفرد + الكاف + المشبه به مفرد

وقد ورد هذا النمط في سبعة مواضع منها قوله مثلا :

يطغى ويلعب في دلال عذاره كالمهر يمرح في اللجام المجرس (١)

وقوله :

أخضر يغتر من جوانبه كالبحر في جزره وفي مده (٢)

وقوله :

وعلى لحظة النزيه طلوع كطلوع البشير بالتأييد (٣)

ونلمح مثل ذلك في قوله :

والروض كالحسنا كساه زهره وشيئا وقلده نداه جوهرا (٤)

في هذه التشبيهات رسم ابن عمار صورا بيانية متنوعة تكشف عن سعة خياله واقتداره من استخدام حسه اللغوي بتراكيب لغوية فيها البساطة والغدوية .

ــ النمط الثاني : المشبه جمع + الكاف + المشبه به جمع .

---

* الفرق بين " الكاف " "وكأن " كلاهما للتشبيه إلا ان الاصل في الكاف ان يليها المشبه به ، ملحق استخدام التشبيه مع الكاف ص ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٤٨ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٣١٨ ، ٣١١ .

(١) المصدر نفسه ص ٣١٨ .

(٢) نفسه ص ٣١٨ .

(٣) نفسه ص ٣١١ .

(٤) نفسه ص ١٨٩ .

ورد في خمسة مواضع منها قوله :

من معشر تتشرف الاذوى بهم كتشرف الايـام بالاعيـاد
جلوا فحلوا في الانـام مكانـة كمكانة الألاف في الاعـداد [١]

وقوله :

ودارت دماؤهم كالكوؤ س وفاضت نفوسهم كالزهر [٢]

نرى ان مثل هذه التشبيهات جاءت عقلية : " والشعراء اذا ارادوا ان يولـدوا فـي النفوس انفعالا جماليا كاملا لم يقتصروا على استعمال الالفاظ التـي تشـير الـى احساسات بصرية ، بل يفضلون الاعتماد على الحواس الاخرى " [٣] .

وردت أداة التشبيه " كما " في جملة ابن عامر الشعرية ، مركبـة فـي الجملة الاسمية أو في الجملة الفعلية ، ومن مثل ذلك قوله :- يحـن الـى غرناطة فوق متنه كما حن مقصوص الجناح الى الورد [٤]

وقوله :ـ

ورن كما انهال القضيب وضحة وشاح كما غنـى الحمـام طروب [٥]

نجده في هذا النمط قد استخدم فعلين متقاربين في الدلالة ففي البيت الاول اسـتخدم الفعل " يحن في جملة المشبه واستخدم الفعل حن في جملة المشبه به " وفي البيـت الثاني استخدم فعلين غير متقاربين في الدلالة فقد استخدم الفعل " رن " في جملـة المشبه والفعل شاح في جملة المشبه به .

---

(١) نفسه ص ٢٧٥ .
(٢) نفسه ص ٢٠٠ .
(٣) ينظر : فن التشبيه : على الجندي ٢ / ٥٠ .
(٤) محمد بن عمار ص ١٩٢ .
(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٠ .

ولم تقتصر ادوات التشبيه التي استخدمها ابن عمار علـــى " كـــأن " و " الكاف " وانما استخدم أداة التشبيه " مثل " في جملته الشعرية استخدما في المقارنة أو المماثلة في التشبيه المفرد أو التشبيه المركب مختصرا أو مفصلا ومن مثل ذلك قوله :

سقط الندى فيه سقوطا نداكا وحلت عليه الشمس مثل شباكا[١]

وقوله :

ومن مثل عباد ومن مثل قومه ليوث حروب أو بدور مواســم

يحفر من الاقلام أمثـــه القــنا لها من لطوخ المسك مثل اللهازم [٢]

وقد يستخدم ابن عمار افعالا تفيد التشبيه من ذلك قوله :

وتهزه ريح الصبا فتخاله سيف ابن عباد يبدد عسكرا [٣]

أحيانا يجيء تشبيهه بدون أداة تشبيه ، كما نلمح ذلك في مثل قوله :

بت فيه والليل والفجر عندي عنبر أشهب ومسك أحمر [٤]

وقوله في وصف الخمر :

خذوها مثلما استهديتموها عروسا لا تزف الى اللئام [٥]

وقوله :

وما هذه الاشعار الاّ مجامر تضوع فيها للندى قطع الند [٦]

ونلمس مثل ذلك في قوله :

السيف افصح من زياد خطبة في الحرب ان كانت يمينك منبرا [٧]

---

(١) محمد بن عمار ص ٢٠١ .
(٢) نفسه ص ٢١٦ - ٢١٧ .
(٣) نفسه ص ١٨٩ .
(٤) نفسه ص ٢٥٥ .
(٥) نفسه ص ٢٦٤ .
(٦) نفسه ص ١٩٩ .
(٧) نفسه ص ١٩٢ .

ومن تقصينا الفاحص للتصوير البياني في شعر ابن عمار وجدنا ان فن التشبيه جاء ظاهرة بارزة ، لم يصعب على ابن عمار استخدام اساليبه المتنوعة وأدواته المتعددة ، بل اتخذه وسيلة مهمة لبناء الصورة الشعرية والصوتية دون تنافر بين اطار الجملة الشعرية ومعاني الفاظها ، فكان مصدرا للالهام الفني والابداع فيه فضلا عن اثبات شاعريته المتمكنة من تطويع اللغة والتلاعب بالفاظها .

على ان التشبيه ليس بالامر السهل كما يؤكد ذلك قول ابن رشيق : " واشد ما تكلفه الشاعر صعوبة التشبيه لما يحتاج اليه من شاهد العقل واقتضاء العيان [١] ويستطرد ابن رشيق قائلا :ـ " وانما خصصت التشبيه لأنه أصعب أنواع الشعر وأبعدها متعاطى ـ ـ ـ فالتشبيه الحسن هو الذي يخرج الأ غمض الى الاوضح فيفيد بيانا " [٢] وهذا يؤكد قولنا بان ابن عمار استغل فن التشبيه في بناء صوره البيانية التي غدت ركنا اساسيا من البناء العام لمعظم قصائده تقريبا .

واذا ما تأملنا تشبيهات شعر ابن عمار نجد مصادرها متنوعة ومنتزعة من واقع الشاعر بما فيه من جمال الطبيعة . بل كثيرا ما نجد روابط بين استخدامات التشبيه ودقائقها وبين معطيات عصر الشاعر وذلك نتيجة التركيز على الاثارة والايحاء الى القضايا الاجتماعية التي يتطلبها الواقع الفني والحقيقي معا .

لذا جاءت صوره التعبيرية مألوفة لا نحس غرابة فيها ولا غموض ، فضلا عن ذلك فأن صوره التشبيهية جاءت بلغة سهلة تمثلت بوضوح طرفي التشبيه والاداة في الغالب ولنا ان نتأمل قوله :

والطل مثل برادة من فضة منثورة في تربة من عنبر

فالصورة مركبة فيها الطرافة والجدة ، وابن عمار ـ كما يبدو ـ امتلك سر الكلمة بفطرته الملهمة ، وله القدرة على بث روحا جديدة تمكن الكلمة من اداء وظيفتها الفنية ولا تقف عند الدلالة التي وضعت لها بأصل اللغة .

---

(١) العمدة ١ / ٣٨٥ .

(٢) نفسه ١ / ٣٨٧ .

ومما زاد في قوة شاعرية ابن عمار التصويرية تمكنه من رسم صور فنية مترابطة الاجزاء متقاربة في مقابلاتها الحسية والمعنوية ، فكانت دليلا على ذكائه وفطنته ، وحضوره الذهني ساعة الابداع ، وهو في ذلك أفصح عن شاعريته وقرب رؤاه الفنية من واقع بيئته الاندلسية .

ـ التصوير بالاستعارة :

لقد جاء التصوير الاستعاري عنصرا رئيسيا ، بل جوهر العبارة الشعرية في نتاج ابن عمار الشعري ، فكان استخدامه تقليديا ـ في أغلبه ـ فهو يميل الى الايجاز والتركيز في الاعتماد الكلي على الادوات البيانية من تشبيه واستعارة وكناية كل ذلك لعرض افكاره عن طريق الايحاء بصورة غير مباشرة .

والنقد الادبي يجمع على ان الاستعارة " توضح المعنى وتؤكده وتحسن معرضه ، وان المجاز دائما أبلغ من الحقيقة [١] ولعل هذا ما دعا ابن عمار الى استخدام الاستعارة في التصوير الفني وتشكيلاته اللغوية ، فهي ضرورة فنية لزيادة التحام البناء العام بالصورة الشعرية ، وخلق عالم جديد تبرز من خلاله القيمة الفنية والجودة الشعرية بما فيها من توقد الخيال في تجسيد المشاعر الفنية في دلالات ايحائية قريبة من الواقع .

ان ابن عمار استكثر من الاستعارة في شعره ، بل لم يكتف باستعمالها مرة واحدة في البيت الواحد كما سنتبين من اقواله الشعرية التي منها :

فعاقر سيفك حتى انحنى وعربد رمحك حتى انكسر [٢] .

حيث وقعت الاستعارة في (عاقر سيفك) وفي (عربد رمحك) وهي استعمالات لغير ما وضعت له اصلا ، فهو أراد ان يجسم معنى البطولة في سوح القتال ، والصورة كما نلمحها فيها حركة وصوت ، وفيها شيء طريف من الايحاء الفني . وقوله :

---

(١) الصناعتين ٢٠٥ .

(٢) محمد بن عمار ص ٢٠٠ .

والشمس ترمقنا خلا ل الغيم عن طرف كليل [١]

حيث استعارة الفعل " ترمقنا " للشمس ، وهي صفة خاصة للانسان ، فأعطى للصورة البيانية بعدا من التجسيم فضلا عن منحها حركة وحيوية في اطار من لغة سليمة التركيب في جملتها الشعرية الموحية.

وفي شعر ابن عمار نلحظ تعدد انماط الاستعارة في مواقعها من الجملة البيانية وقد تراوح مجيئها بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية ، ويبدو تفنن ابن عمار بقدر طاقته على تشكيل الصور الفنية الملائمة واستغلال جانب الاستعارة في البناء العام للتصوير كما يتبين لنا في قوله :

حكت الغصون جمال قدك ما نثنت والفضل للمحكي لا للحاكي [٢]

وقوله :

ما الحمام الايك تبكيك كلما تبسم ثغر للصباح شنيب

في هذين البيتين المتقدمين نلحظ الافعال (حكت ، تبكيك ، تبسم) جاءت في غير ما وضعت له اصلا ، ولكن بطبيعة مرونة الشعر تمكن ابن عمار من صياغة صور بيانية حركية مقبولة في ادائها الفني .

وكذلك في قوله :

في مجلس بسط الربيع بساطه زهرا ورقرقه عليك اراكا [٣]

وفي قوله :

فتى نسخ الغدر افتضاء وفائه فلا تحكى ان الوفاء غريب [٤]

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٣ .

(٢) نفسه ص ٢٤٢ .

(٣) نفسه ص ٢٤٠ .

(٤) نفسه ص ٢٠١ .

تضمن البيتان المتقدمان استعارات في تراكيب الجملة الشعرية البيانية تمكن ابن عمار من استغلالها في صياغة صور فنية سمعية وبصرية في تشخيص وتجسيم موفق .

وقد تجلت بعض استعارات ابن عمار في اطار من الصياغات التقليدية ، تبدو عليها جزالة الالفاظ ، وخشونتها احيانا ، من مثل ذلك قوله :

صعاليك هاموا بالقلا فتدرعوا جلود الافاعي تحت بعض النعائم [١]

وقوله :

وهل شققت هوج الرياح جيوبها لغيري أو حنت حنين الروائح [٢]

كذلك نلحظ صورا شعرية ــ في استعمال تجديدي ــ ولدتها الاستعارة لأشياء معنوية وغير محسوسة كما نرى قي قوله :

وسماء من الغنى قد أسالت ذهبا في قرارة من لجين [٣]

فقد جعل " الذهب " يسيل من السماء .

وفي قوله :

وما لبست زهر النجوم حدادها لغيري ولا قامت له في مأتم [٤]

فجعل لزهر النجوم ضربا من الحزن المعبر عن الوفاء .

وفي ابيات اخرى تولدت فيها صور شعرية نتيجة استخدام (التجسيم) لأشياء معنوية مجردة الا ان ابن عمار خلع عليها صفات معينة فتحولت من وصفها الاصلي الى وصفها الجديد ، وذلك بطبيعة لغة الشعر الخاصة ، كما في قوله :

حتى سقاني الدهر كأس فراقه فسكرت سكرا لا يفيق حماره [٥]

---

(١) نفسه ص ٢١١ .

(٢) نفسه ص ٢٠٩ .

(٣) محمد بن عمار ص ٢٢٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٢١ .

وفي قوله :

انا العبد في ثوب الخضوع لو انني ارى البدر تاجي والنجوم خواتمي [١]

وقوله :

واليك يا منصور قادت همتي مزمامها جرد المذاكي الضمرا

ان هذه النماذج الشعرية دليل على شاعرية ابن عمار وقدرته الفعلية على جمع اشتات عناصر الصورة المستدعاة لغاية المشابهة او المنافرة وتنظيمها في نسق شعري منسجم ، " إذ ان عمل الشاعر الفني يعتمد على التخيل ، ليجمع بين صور الاشياء المختزنة في الذاكرة ، والمرتبطة باساسها الحسن في الخارج ، وان الخيال لا تتوقف قدرته على محور الاستعادات المجرد ، بل هو يقوم بعملية تنظيم وابداع جديد [٢] .

ومن هذا التناول الشعري الناقد للجانب التصويري نستطيع القول بأن ابن عمار لم يكن مبدعا كل الابداع في تصويره الفني البياني ، ولا مقلدا كل التقليد ، وانما أخذ من كل بطرف ومزجه بعد استيعابه وتمثله ذاتيا ثم صبه في قالب شعري خاص به ، وقد لجأ الى التشبيه لأنه مادة غزيرة تعينه على الكشف عن بعض جوانب بيئته الاندلسية بما فيها من جمال ومن تفاوت او تناقض ، كذلك لجأ الى الاستعارة لانها عنصر جوهري لتشخيص وتجسيم مظاهر الطبيعة والتعبير عن مشاعره ازاء مظاهر الحياة .

ومن هنا جاء شعره تصويرا بيانيا لفترة من الحياة الاندلسية التي عاش ابن عمار أحداثها ومعطياتها المختلفة ، فكان شعره عطاء تجربته الذاتية في الحيلة الاندلسية ، وعصارة أفكاره ورؤاه الفنية .

المبحث الثاني الصورة البديعية

بعد ان تناولنا الصورة البيانية في شعر ابن عمار نقديا ، نتجه لدراسة الصورة البديعية وبيان مدى النجاح في استخدام التحسين المعنوي او اللفظي ، إذ

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٨ .

(٢) ينظر : في البلاغة العربية : رجاء عيد ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

ان البديع من محسنات المعنى او اللفظ ولجماله التعبيري شروط ينبغي توفرهـــا ، كأن يصدر عن طبع ، ويستخدم بقلة ويؤدي خدمة المعنى ، اذن ، فهو سر جمـــال لغة الشعر .

وقد يبلور اهمية البديع في الشعر قول الجاحظ : " والبديع مقصور علـــى العرب ومن اجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت كل لسان " (١) .

كذلك يرى النقد القديم : " ان البديع ابداع المعنى في صورة فنية فريدة لا تنسب الا الى الشاعر ، وقد لا يجوز للاخرين اخذها " (٢) .

إذ ان الشاعر يمتلك سر الكلمة بفطرته الملهمة ، وله القدرة علـــى بـــث روحا جديدة تمكن الكلمة من اداء وظيفتها الفنية ، ولا تقف عنـــد الدلالـــة التـــي وضعت لها بأصل اللغة ، أي ان العبارة في الشعر تحمل اكثر من معنى .

ويبدو لنا ان ابن عمار استغل عنصر البديع في شعره عن قصد ليكسو به معانيه الى جانب رغبته بصياغة سلسة سمحة يتمثل فيها ائتلاف اللفـــظ والمعنـــى وتشكيل صورا شعرية لها القدرة على توضيح الفكرة التي يقصدها .

ونرى ان قضية البديع في الشعر ليست مجرد تحسين او حلية تضاف الى لغة الشعر ولكنها احدى العناصر الجوهرية في الشعر ، بل من اهم وسائل التعبـــير الفني لخلق صور شعرية متنوعة .

ويمكن القول ــ بصفة عامة ــ ان استخدام البديع في التنميـــق اللغـــوي وتحسينه جاء ظاهرة بارزة تمثلت في الطباق والجناس وما يرافقهما من اشـــتقاق او ترادف لفظي وسنوضح هذا كما يأتي :

ــ الطباق :

الطباق هو الجمع بين المعنى وضده في مقابلة بين جملتيـــن ، او جملـــة شعرية وهو المقابلة الا ان المقابلة بين عدة اشياء ، والطباق بين الشيء وضـــده او نقيضه ، فالفارق شكلي او كمي او اصطلاحي . " وتقوم فلسفة الطباق على ذكـــر

---

(١) . البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ٤ / ٥٥ .

(٢) الموازنة ص ١٦٠ ، وينظر : الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٣٦ - ٣٧ .

الكلمة وضدها باللفظ والمعنى ــ بالسلب او الايجاب واوضحه ما كان باللفظ ، ومن ثم كان اكثر دورانا بالادب وحديثا بالنقد [١] .

ولمعاني الطباق كبير الاثر على استجابة المتلقي فضلا عن انه يثبت المعنى في النفس لأن الجمع بين المعنى وضده يكون اقرب حضورا في الذهن واسهل حفظا للملتقي.

من ذلك قول ابن عمار مثلا :

لله درك لو طلبت حقيقتي لو حدثتني بدل العدو خليلا [٢]

فقد وقع الطباق بين قوله (العدو ، والخليل ، وهو طباق مألوف لا يكاد المتلقي يسمعه الا ويتبادر الى ذهنه شيء من معانيه المضادة على اننا نرى عدم الانسجام التام بين شطري البيت .

ونلحظ براعة ابن عمار في استخدامه الطباق في قوله :

وافق من الانف الذي تعتده عزا فقد يدع العزيز ذليلا

ومن بديع حسن استخدامه الطباق قوله :

---

(١) اسس النقد الادبي عند العرب : د. احمد بدوي ص ٤١٦ - ٤١٧ .

(٢) . محمد بن عمار ص ٢٨٦ .

تأملت منك البدر في ليلة الخطب ونلت لديك الخصب في زمن الجدب[١]

اجر ذيول الليل سابغة الدجى واركب ظهر العزم صعب الشكائم [٢]

ونلحظ الطباق في قوله :

لا تطلبوا في الحب عزاً انما عبدانه في حكمة احرار [٣]

في الابيات المتقدمة نلحظ تراكم المطبقات بين ((العزيز والذليل)) في البيت الاول وبين ((البدر ، وليل الخطب ، والخضب والجدب)) في البيت الثاني ووقع الطباق في البيت الثالث بين الفعلين : (اجر، واركب) . ووقع في البيت الرابع بين (اول ، واخر) في حين كان الطباق في البيت الخامس بين لفظتي (عبدانه ، واحرار) .

لقد تضمنت هذه النماذج من صياغة ابن عمار اللغوية صوراً بديعة تشف عن اقتداره من الجمع بين معنيين متضادين في شيء من التقارب في البيت الواحد .

وجاء في شعر ابن عمار استخدام (المقابلة . في التحسين اللغوي من ذلك قوله :

-

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٥ .

(٣) المصدر نفسه ٢٢٠ .

ام من طوى الصبح المنير نقابه واحاط بالليل البهيم خماره [١]

وقوله : عذرا اليك فانما هي اوجه بيض تقابلها عيون سود [٢]

ونلحظ حسن استخدامه المقابلة في قوله :

من العابسات الدهم الا التفاتة والى غرة اهدت لـــه ثغـر باسم [٣]

ولعلنا نلحظفي الابيات المتقدمة ان التشكيل اللغوي جاء عن ترتيب مقصـــود في توالي الالفاظ فزاد في العلاقات الطباقية فاصبحت ضرورة شـــعرية لتحســين المعنى وتماسك الصورة الفنية المرسومة .

- <u>التجنيس والاشتقاق .</u>

لقد اكثر ابن عمار من الجناس ليعينه- كما يبدو- على تـــوازن الايقـــاع الصوتي والتوافق اللفظي في جملة الشعرية . وعلى الاستمرار في النظـم تافني بتقسيمات نغمية متجانسة – سواء كانت نغمة هادئة او نغمة حماسية عالية النبرة تستنهض النفوس .

ولعل هذا ما دفع ابن عمار الى انتقاء الالفاظ الرقيقة والمألوفة في اطـــار وقعها الايقاعي وهذا ما اضفى على نسيجه الشعري خصـــائص متمـــيزة منها : خفة الايقاع ، وظاهرة التكرار ولكن بدون ملل كبير ، كما سترون في قوله :

لم ترو من راح ولا من راحة حتى ارتوت بدم العـواة قناكا [٤]

في هـــذا البيـــت وقـــع التجنيـــس فـــي ((تـــرو ، ارتـــوى)) وفـــي ((راح وراحة)) .

---

(١) محمد بن عمار ص ٢٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٩ .

(٤) محمد بن عمار ص ٢٠٢ .

ونلمح الجناس في قوله :

من كل ابيض قد تقلد ابيضاً غضبا واسمر قد تقلد اسمرا

لقد وقع الجناس بين ((ابيض)) في الشطر الاول ، ووقع في الشطر الثاني في لفظة

((اسمر)) والجناس تام .

والامثلة على الجناس كثيرة ، نكتفي بما اوردنا منها ، اما الاشتقاق فهو الاخر ورد ملازماً للجناس اكثر من غيره في التحسين اللفظي كما في قوله :

ما بال قلبي حين رامك لم ينل ولقد ترومك مقلتي فتراك

وقوله : واغضني لمن يلقي بوجه مكاره حياء فالقاه بوجه مكارم

وقوله مادحاً : اثمرت رمحك من رؤوس كماتهم لما رايت الغصن يعشق مثمرا

ونلمس الاشتقاق كذلك في قوله :

وعلى لحظة النزيه طلوع كطلوع البشير بالتاييد

وكذلك في قوله :

سقط الثدى فيه سقوط نداكا وحلت عليه الشمس مثل شباكا[١]

ونحن لا نستطيع ان نمر على هذه المحسنات مروراً عابراً دون التامل فيها ، اذ ان الامثلة غير مجدية ما لم نتخذها وسيلة للكشف عن بعض معالم الجمال والفن في النص ، واعتقد ان هذه المحسنات لم تاتي في الشعر بدون سبب ، ومن غير المنطق ان تاتي لمجرد الزينة اللفظية ، والمنطق ان هذه المحسنات بمقدار مالها من تاثير جمالي في النص فان لها دورها في توكيد امر ارق الشاعر وشغل ذاته ، فاراد ان يلفت اليه الانظار وليؤكد انه دائماً مشغول به .

مما تقدم نخلص الى ان الصورة شيء موضوعي لجأ اليه الشاعر لتكون واسطته بل جوهر ابداعه في التأثير الفني وفي البناء العام ، اما فنيتها فقد تجلت

---

(١) محمد بن عمار ص ٢٠١ .

(٢) ينظر الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، للدكتور عز الدين اسماعيل ص ٨٠ .

في حسن استخدام ابن عمار تشكيلاتها اللغوية وجزيئاتها الفنية . وفي قدرتها على الايحاء والتأثير بما تشمل عليه من نظام في الموسيقى والالفاظ ((والنظام عنصر اساس في الاعمال الفنية على اختلاف انواعها))

وفي قدرتها على الاقناع بما يضيفه عليها الشاعر من التعليل والبرهنة والاثبات ، لذا كثيرا ما نجده يلجأ الى الصورة الفنية بتفسير ما يحسه نحو الحياة او الطبيعة فيعمد الى تصوير خواطره في صورة شعرية خالدة تكشف عن حسه الفني ، ومزاجه الشعوري ، وعن مدى قدرته على الاستجابة لمعطيات الحياة او الطبيعة في لغة شعرية منضبطة ، فضلا عن ذلك فان الصورة في شعر ابن عمار يمكن ان تكون مصدرا اساسيا من مصادر الحياة الاندلسية التي عاشها الشاعر ، ثم تحديدها لمواقع جغرافية وقيمة بيئية عفى عنها الدهر ولكن الشعر خلدها .

مصادر البحث

١- الاسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر العربي ، ط٣ ، ١٩٧٤ .

٢- اسس النقد الادبي عند العرب ، الدكتور احمد بديوي ، (د .ت) .

٣- البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦١ .

٤- التصوير البياني، الدكتور حفني محمد شرف ،١٩٦٣ .

٥- الحلة السيراء ، لابي عبد الله محمد ابن الابار ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦١ .

٦- الشعر المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ .

٧- الصناعتين ، لابي الهلال العسكري ، تحقيق علي البجاوي ، ومحمد ابو الفضل ابراهيم ١٩٥٢ .

٨- العمده في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق القيرواني ،ط١ ، مطبعة حجازي ١٩٣٤ .

٩- فن التشبيه ، علي الجندي ، مطبعة نهضة مصر ط١ ، ١٩٥٢ .